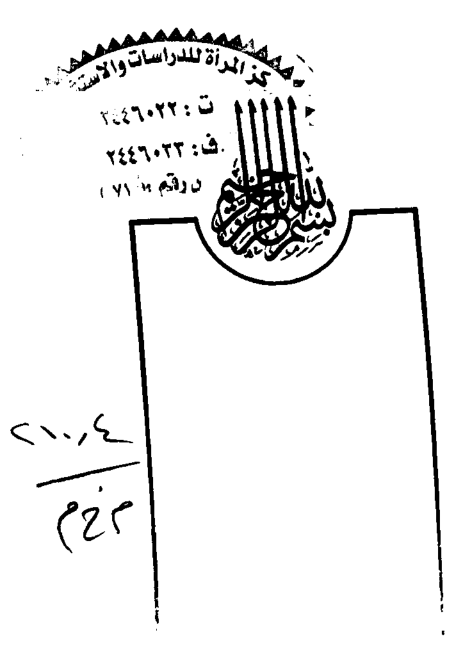


من هي المرأة الصالحة في الإسلام

تأليف
خالد عبد العظيم متولي

مكتبة علوم القرآن



من هي المرأة الصالحة في الإسلام

خالد عبدالعظيم متولي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٣م

مَنْ هِيَ
المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ
فِي الإِسْلَامِ

تَأْلِيفُ
خالد عبد العليم متولي

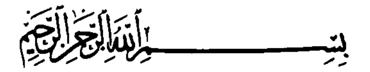
مؤسسة علوم القرآن
الشارقة




« الدنيا متاعٌ ، وخيرُ متاعِها المرأةُ الصالحةُ »

رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

أما بعد :

إذا تربع الإيمان على عروش القلوب ، ورسخت جذورُه في الضمائر ، فلا يجد المؤمن له راحة وسكناً إلا في طاعة ربه وتسليم قياده له ، فالله أعلم بمصلحة عباده .

وشرع لهم ديناً يحفظ حياتهم من الخوف والقلق ، ويحميها من الهلاك والدمار ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ولا يستطيع عبد أن يحيط بمصالح العباد ، ولا أن يقنن لهم ديناً ومنهجاً يحفظ حياتهم من الضياع ، لأنَّه عبد مثلهم ، فيه ما فيهم من العجز والقصور ، إنما الذي يرسم منهج الحياة هو الذي أحاط بكل شيء علماً ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهذه كلها ليست إلا لله وحده ، الذي نحبه ونعبده ونتوكل عليه .

وإذا كانت الأسرة الصالحة هي اللبنة الأساس في بناء صرح المجتمع الإسلامي ، فإنَّ المرأة الصالحة هي المركز في دائرة الأسرة ، منها وإليها يكون السكن والهدوء ، والراحة ثم التربية ، والتزكية ، ثم الأجيال الصالحة التي تحمل الأمانة ، وتثمر في الحياة الخير والحق .

فالذي يبحث عن السكن والمودة والرحمة ، ويبتغي محضناً طاهراً لذرية صالحة ، وتتوق نفسُه إلى حياة طيبة هادئة ، فإنّه حتماً سيبدأ بالبحث عن المرأة الصالحة ، فعندها تتلاقى هذه الرغبات كلها ، ومنها يمده الله بالزاد الذي يعينه على المضي في طريق الحق ، ويمسح به عنه عناء الحياة . . .

* * *

من هي المرأة الصالحة ؟ وما هي المعايير التي توزن بها ؟ وكيف نحدد ملامحها ؟

إن الإجابة لا ينبغي أن تنبع من الخيال ، ولا أن تكون وليدة

الظنون والأوهام ، ولكننا نأخذ هذه المواصفات من مصدرين اثنين نجد فيهما الدقةَ في الوصف ، والأمانةَ في النصح ، ألا وهما : الكتاب والسنة .

فما رآه الشرع حسناً فهو حسن ، وما رآه الشرع قبيحاً فهو قبيح ، والشرع لم يجعل العقل مصدراً من مصادر التشريع ، ولكنه فقط يدلنا على الحكمة من وراء النصوص ، فالعقول متفاوتة ، وقدرتها محدودة قاصرة ، وأما ما جاءنا عن ربنا فهو الحق الذي تلتقي عليه العقول الواعية ، ولا ترفضه إلا العقول الواهية .

وهذه الرسالة إنما هي لمن ينشد زوجة صالحةً وكيف يستدل عليها ؟

وهي للمتزوج ليأخذ بيد زوجته إلى القمة التي ترفع قدرها ، وينتفع هو بنفسه من بعدُ ثمراتها .

وهي للمؤمنة الصادقة لتزنَ نفسها بميزان لا يحابي أحداً يريد منه غرضاً أو مصلحة .

والله يهدينا سواء السبيل ، ويرزقنا الحكمة في البلاغ ، ويجنبنا مواطن الزلل ، ويرفع هممنا لبلوغ مراده منا .

والله المستعان ، وعليه البلاغ ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

خالد عبد العليم متولي



« فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تربتْ يداك »

الرغبة في الزواج فطرة ، والهروب منه رهبانية ، ولا رهبانيةَ في الإسلام ، فقد خلق الله فينا الشهوة ، وشرع لنا الطريق لإشباعها بطريقة سوية ، ودلَّنا على كيفية الاختيار لمن نجد عندها سكونَ النفس وإشباعَ الشهوة ودوامَ العشرة .

والناس يقصدون في العادة من المرأة خصالًا أربعاً : المال ، والحسب ، والجمال ، والدين . والثلاثة الأولى يشترك معنا فيها غير المسلمين ، أما الدين فهو الخصلة التي تتميز بها المؤمنة عن غيرها .

والدين خصلة جامعة للخصال كلها ، فكفى بالدين غنى يرفع همة النفس عن سؤال الخلق ، فالغنى غنى النفس ، والدين هو أعظم حسَبٍ يشرُفُ به الإنسان ، وجمال الخُلُق أبهى وأعظم من جمال الخَلْق .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تُنْكَحُ المرأةُ لأربعٍ : لمالِها ، ولحسبِها ، ولجمالِها ، ولدينِها ، فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تربتْ يداك » .

ومعنى (تربت يداك) : أي لصقت بالتراب ، وهو دعاءٌ عليه

بالفقر إن لم يظفر بذات الدين ، وقيل : هي كلمة مدحٍ وثناءٍ ، أي أصبت الخير والبركة إن ظفرت بذات الدين .

ولماذا ذات الدين ؟

لأنه لو غاب الدين فقد فُتح الباب لضياع خصال المرأة كلها ، فالمرأة التي لا دين لها لا بصيرة ولا عقل لها ، فربما جنت عليها شهوتها في حب الظهور أو الاستعلاء على الآخرين ، أو الانبهار بالزخارف والزينة ـ والتي غالباً ما تستهوي العقول الضحلة ـ فتنفق المال كله ، وتكون كالشارب من البحر ، كلما ازداد شرباً كلما ازداد عطشاً .

ولو غاب الدين انفلتت خطاها في الحياة ، فوقعت في المحظور ، وإن لم تقع ، فيتجرأ عليها من لا دين له ، لينتزع منها بقية الخير فيها ، وهذا الباب تضيع معه الأحساب ، وتتدنس به الأنساب .

ولو غاب الدين ساء الخُلُق ، فيجني بدوره على جمال الخلقة ، فكم من امرأة جميلة يتحاشاها الناس لسوء خلقها ، ويريدون الاستمتاع بالنظر إليها ، دون الاقتراب منها ، فتتحول بدورها إلى دمية للعرض أمام الناظرين ، لا قيمة لها سوى أنها سلعة لمتعة العيون ، وليست درة ثمينة وجوهرة غالية تهابها العيون .

هذا هو مفرق الطريق عند الاختيار ، فنقطة البداية تتضح منها

معالم النهاية ، وإذا كان صلاح النهاية يرتبط بصلاح البداية ، فالعاقل هو الذي يضع قد- على طريق الوصول ، وينأى بنفسه عن الطريق المجهول . وتصبح نقطة الانطلاق في زواجه بدايتها الظفر ، والفوز بذات الدين ، وهذا بدوره سيجعله يضحّي بالكثير من خضراء الدمن ـ وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء ـ ولن يخدعه الالتماع الكاذب، في كثير من الجيف الطافحة في الطرقات ، ولن يقوده هواه لحياة ظاهرها المتعة وباطنها العذاب ، وإنما يكون دليله في البحث هو قلبه الحي ، وبصيرته المؤمنة ، حتى يرزقه الله الزوجة الصالحة ، وإذا تم التوفيق ، حمدَ الله ذا المن والفضل أن أعانه على شطر دينه ، وآتاه في دنياه حسنة ، وما عليه إلا أن يتقي الله في الشطر الثاني .

فمن هي المرأة الصالحة ؟ وما هي أهم معالمها وصفاتها التي تميزها عن غيرها ؟

نرى في الكتاب والسنة بعض هذه الملامح التي ترسم صورة جلية واضحة للمرأة الصالحة ، زوجة كانت أو أماً أو بنتاً أو أختاً .

وهذه هي أهم المعالم ـ وإن لم تكن كلها ـ التي تجعلنا نضع أيدينا على الصورة المرجوة للمرأة الصالحة :

أ ـ ذات الدين

الدين عقيدة وسلوك ، ومنهج حياة يصوغها كلها من بدايتها إلى نهايتها حسب أمرُ الله .

والعقيدة والسلوك ؛ أو الإيمان والعبادة ؛ كالروح والجسد ، وهما وجهان لعملة واحدة ، فالسلوك ثمرة العقيدة التي استقرت في القلب فهماً وتصوّراً ، ولو انفصل السلوك عن عقيدة القلب لأصبح الدين صورة في حياة الإنسان لا روح فيها ، والجسد الميت لا مكان له في الحياة ، بل مصيره إلى القبر والتراب .

وأكبر الفتن التي تصد الناس عن اتباع الحق هو هذا الفصام النكد بين عقائد القلوب وأعمال الجوارح ، فالإيمان الصادق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل .

ودين المرأة المقصود هو صحة العقيدة وصحة السلوك ، وإذا كانت العقيدة غيباً لا يطلع عليه إلا عالم السرائر جلَّ وعلا ، فلا ميدان لمعرفة ما استقرَّ في القلب إلا رؤية السلوك ، فالسلوك هو مظهر الإيمان الذي امتلأ به الفؤاد ، ثم فاض على الجوارح . ونحن نستدل على طيب الجذور بطيب ثمارها ، فإذا كان الجذر غامراً في الأرض لا يراه أحد ، فالثمرة هي البرهان على صلاح الجذر ، ولو فسدت الثمرة فهذا دليل على فساد جذرها .

وإذا كان الحجاب شعيرة من شعائر الله ، تتميز به المرأة المؤمنة المسلمة عن غيرها ، فهو خطوة على الطريق ، وليس الغاية التي تنتهي عندها مقاصد الشرع .

وحينما جاء التهديد من الله لبعض أمهات المؤمنين حينما أفشى بعضهن سرَّ رسول الله ﷺ ، فقد ذكر الله تعالى صفات اللاتي سيبدله بهن ، وذكر في البداية صفة الخيرية ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٥] وهذه الخيرية هي وصف لما تضمنته الآية من صفات .

متى يُقال عن المرأة : أنها ذات دين ؟

أولًا : يجب النظر إلى المنبت الذي نشأت فيه ، فهو المحضن الذي تمتص منه القيم ، والنبتة تأخذ زادها من الأرض التي زُرعت فيها .

وثانياً : النظر إلى استعدادها لطاعة ربها ، وقبول ما جاءت به الشريعة عن طيب نفس ، دون جدال أو عناد ، وهذا ما تشير إليه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

فالمقياس الذي توزن به ذات الدين ليس هو بقدر ما تحفظه من آيات وأحاديث فقط ، بل بقدر ما هو رغبتها في الإذعان

والرضى بكل ما تمليه عليها الشريعة ، فربما توجد امرأة لا حظَّ لها في حفظ النصوص الشرعية ، ولكنها ذات استعداد هائل لقبول الحق ، والاستقامة عليه .

والعلم يترقى لديها بجهدها ، ولكنَّ أولَ العلم هو تهيئةُ القلب لقبول الحق ، ثم المسارعة إلى ترجمته سلوكاً وعملاً .

وثالثاً : **حفظ الحقوق** لمن يعيشون حولها ، فذات الدين توقِّر أباها ، وتحترم أخاها ، وتحبُّ أمَّها ، ومن ثَمَّ ينعكس هذا على بيتها الجديد ، حيث تعامل زوجها بالوقار والمحبة ، وترحم أولادها رحمة واعية ، تدفعهم إلى الفضيلة ، وتنأى بهم عن الرذيلة .

فالزوجة هي الرفيق الذي يصحبه المؤمن في رحلة حياته مدة تطول عن صحبته لأهله وذويه ، وإذا كانت ذات دين فالضرر من جانبها مأمون ، والفائدة من جهتها مرجوة ، ببركة طاعتها وتقواها ، فهذه هي ثمرة صحبة أهل الخير ، فيجب أن يكون الدين مطمحاً في كل شيء ، لا سيما فيمن تطول صحبته .

روى ابن ماجه عن ابن عمر رفعه : « لا تزوَّجوا النساءَ لحسنهنَّ، فعسى حسنُهنَّ أنْ يُرْدِيَهُنَّ ـ أي يُهْلِكُهُنَّ ـ ولا تَزَوَّجُوْهُنَّ لأَمْوَالِهِنَّ ، فعسَىٰ أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ ، ولكنْ تَزَوَّجُوْهُنَّ على الدِّيْنِ ، ولأَمَةٌ سَوْدَاءُ ذاتُ دِيْنٍ أَفْضَلُ » .

إن الجمال يبلى ، والمال يغدو ويروح ، أما الدِّين فهو الثروة

التي تصحب صاحبها حياً وميتاً .

وذات الدين متميزة في سيرتها ، فلا تلغو ولا تلهو ، وتحفظ جوارحها ، وتنأى بنفسها عن مجالس الباطل ، ولا تصاحب إلا من تعينها على الطاعة ، وإن صحبت بعض الغافلات فتلك ضرورة الدعوة ، لتؤثر فيهن ، لا أن تتأثر بهن ، ولتقودهن إلى الحق ، لا أن تنقاد معهن إلى الضلال .

وذات الدين متميزة في سريرتها ، فهي صافية القلب ، معتدلة المزاج ، منضبطة المشاعر ، صاحبة وعي وعقل وبصيرة ، وإيمانها يعينها لتتغلَّبَ على النقص والضعف المركوز فيها ، فتغلبُ عليها الحكمة والحلم ، وليس المكر والدهاء ، وتتحلى بالصبر والأناة ، وليس بالحيلة والكيد ، وتتجمل بالهدوء والثقة ، وتتخلى عن الهلع والتهور .

والحديث الذي يذكر أن نعمة الله على العبد بعد الإيمان هي المرأة الصالحة لم يحدد معالم دينها بما تحفظه من نصوص ، أو يحويه عقلها من معلومات ، بل دينها قائم فيها إذا نظر إليها زوجها سرته رؤيتها ، وإذا أمرها أطاعته دون جدال ومراجعة ، وإذا غاب عنها كان مطمئن الفؤاد ، هادىء البال . إنها عفيفة لا تخونه ، أو تنظر إلى غيره ، كما أنها أمينة على ماله وبيته وعياله .

إذا تحقق فيها ذلك فهذا هو دينها ، وهي حينئذ ذات دين ،

وزوجها قد أكرمه الله في دنياه بخير متاعها ، وهي المرأة الصالحة .

ذات الدين مرغوبة من الصالحين ، فهي حسنة الدنيا التي يريدون الفوز بها ، ولا يزهد فيها إلا من لا خير فيه ، فالطيبون للطيبات ، والخبيثون للخبيثات .

ومن أراد أن يدله الله على ذات الدين فليبدأ بالدعاء والافتقار كما دعا موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص : ٢٤ ـ ٢٥] فلما أظهر افتقاره بين يدي ربه ساق الله إليه من تعينه على دينه ودنياه .

* * *

٢ ـ « إذا نظرَ إليها سَرَّتْه »

المرأة الصالحة موضع السكن ، وموطن الرحمة ، ونبع الحب لزوجها الصالح ، فمن مقاصد الزواج في الإسلام حفظ الفروج عن الحرام ، وإفراغ الشهوة بطريق مشروع ، يحفظ الأنساب من الاختلاط ، ويعفُّ عن النظر إلى الحرمات ، ويؤمِّن هدوء النفس حال فوران الشهوة وجوع الجسد إلى رغبته الفطرية.

ومن هنا ، زينةُ المرأة لزوجها ـ حتى تدخلَ عليه السرور إذا رآها ـ طاعةٌ لله وقربةٌ ، تصل بها إليه ، لأنها تحصن زوجها عن النظر إلى ما حرَّمه الله عليه ، كما أنها في ذات الوقت تحظى بحبه وتعلقه بها ، فلا يلتفت إلى غيرها .

وكثير من النسوة بعد الزواج يراعين الزينة والتجمل للزوج حتى يأتي المولود الأول ، ثم تزهد من بعد في شأن نفسها ، متعللة بانشغالها بما هو أهم ، والحق الذي لا مرية فيه أن للمولود حقوقاً ، وللزوج حقوقاً ، ولا تعارض بينهما ، ولا ميدان لهضم أحدها على حساب الآخر ، وإن كان الزوج له الحق الأوجب والأول .

فالشريعة تأمرها برعاية مولودها دون الإهمال في حق زوجها ، فكلا الأمرين طاعة لله ، ولا صدام ولا تعارض بين

الطاعات ، بل لكل طاعة وقتها ، فإذا غاب الزوج عن البيت فأمامها وقت طويل لولدها ، وإذا حضر زوجها تهيأت له ، وتزينت ، لتمسح عنه عناء الحياة ، وتعب العمل ، وهذا الميدان لها فيه أجر كأجر المجاهد في سبيل الله .

إن المرأة الصالحة عاقلة واعية ، وعقلها لم ينشأ من المكر والدهاء ، وإنما يغذيه نور الإيمان والبصيرة ، وتدرك بوضوح مهمتها في الحياة ، وإذا صاغت حياتها كما يريد لها ربها ستكون هي أول السعداء ، وستنأى بنفسها وبأسرتها عن أسباب الشقاء .

إن دوام الحب وحرارة العاطفة بين الزوجين قائم على حفظ الحقوق ومعرفة الواجبات ، وهذا كله يسد الباب أمام الشيطان ، فلا يستطيع أن يدخل البيوت المؤمنة ليعربد فيها ، ويدمر سعادتها .

لذلك شدَّد الشارع الحكيم على المرأة إذا دعاها زوجها إلى فراشه فتأبى عليه ، لأن الثمرة المرة لهذا الإباء ربما يكون البغض والكره الذي يملأ قلبه لها ، أو يتجه بالنظر إلى غيرها ، أو يحيط به قرناء السوء ، فينحرف عن الصراط المستقيم ، ويهوي إلى أودية الضلال .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فراشِه فلم تأتِه فباتَ غضبانَ عليها لعنتْها الملائكةُ حتى تصبحَ » متفق عليه .

وفي رواية لهما : « إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فراشَ زوجِها لعنتْها الملائكةُ حتى تصبحَ » .

وفي رواية قال رسول الله ﷺ : « والَّذي نفسي بيده ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأتَه إلى فراشِهِ فتأبَىٰ عليه إلَّا كان الذي في السَّماءِ ساخطاً عليها حتى يرضَىٰ عنها » .

والمرأة الصالحة جميلةٌ في عين زوجها مهما طال بهما العمر ، فهي جميلة في هيئتها وابتسامة وجهها ، والرضى الذي يملأ كيانها ، وحسن سلوكها ، ورقة تصرفها ، وهي جميلة في زيها حال الفقر ، كما هي حال الغنى .

حقاً إن جمال الخُلُق ليعلو على جمال الخِلقة ، والبصير من يرزقه الله الفهم والحكمة في كل حال .

وهذه الصفة مدحها النبي ﷺ في المرأة حينما روى عنه أبو هريرة رضي الله عنه قوله : « خَيْرُ النساءِ امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سرَّتْكَ ، وإذا أمرتَها أطاعتْكَ ، وإذا غِبْتَ عَنْها حَفِظَتْكَ في نفسِها ومالِكَ » ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] .

ومما نصحت به امرأةٌ لابنتها عندما كانت تُزف إلى زوجها : تفقدي موضع عينه وأنفه ، فلا تقع عيناه منك على قبيح ،

ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

إنَّ المرأة الجميلة في عين زوجها تقطع جذور الوسواس من قلبه إلى غيرها ، وهذا ما يجدد حرارة العاطفة ، فلا تخبو ولا تنطفىء ، لأن خمود العاطفة يبلِّد المشاعر ، ويتحجر معه القلب ، وتذبل بسببه المودة ، ثم يفضي ذلك إلى الجفوة والشحناء والبغضاء .

والسيرة النبوية حافلةٌ بهذه المشاعر السامية ، التي فاض بها قلب النبي ﷺ على زوجته عائشة رضي الله عنها حينما كان يناديها مرةً فيقول : « يا عائشُ » ، ومرة : « يا عُوَيشُ » ، ومرَّةً : « يا موفقةُ » . وكان يشرب الماء من موضع فيها[1] . وكان قافلاً من غزوة وهي معه ، فتأخر عن الركب معها ليسابقها في الجري . وغير ذلك[2] مما يشير إلى تدفق العاطفة ، وحرارة الصلة ، وقوة المشاعر الطيبة بين الزوجين ، وهذا كله تعليماً لهذه الأمة ، فهو ﷺ قدوتها وإمامها ، وقائدها إلى كل خير وبر ومعروف .

وحينما تُدعى المرأة إلى التجمل والزينة لزوجها ، فهذا ليس معناه فتح الباب للإسراف والتبذير والمَخِيْلةِ تحت مظلة التزين أو حجة التجمل ، فهذا الدين روحه الاعتدال والتوسط بلا إفراط

---

(١) فمها .

(٢) تُراجع هذه الروايات في « زاد المعاد » لابن القيم . و « الشفا » للقاضي عياض و « البداية والنهاية » لابن كثير .

ولا تفريط ، وإنما تهيِّىء نفسها لزوجها في دائرة استطاعتها ، فهذا مما يجلب إليه السرور ، ويدخل عليه الفرح والبهجة .

إنَّ المؤمنة لا تحب أن ترى إلا زوجها ، ولا يراها إلا زوجها ، أما المنحرفة فهي تبالغ في الزينة ، ليراها غير زوجها ، وهذا يدل على شعورها بالنقص والمرض ، لأنها تستجدي نظرات من حولها ، ولا تقنع برؤية زوجها لها ، بل هي تتزين لغيره من الأجانب عنها ،لذا فإن قدرها ومكانتها تتسرب من قلب زوجها ، فيزهد فيها ، دون أن تدري ، لأنه يرى غيره شريكاً معه فيها ، كما أنها لا تزداد إلا احتقاراً وهواناً في عين من يراها ، حيث يعتبرونها متاعاً مباحاً لا صاحب له .

* * *

٣ ـ « إذا أمرَها أطاعَتْه »

الطاعة حق مشروع للزوج ، فرضه الله على المرأة ، فالبيت كالسفينة لا بدَّ لها من قائد واحد ، وإلَّا هلك من فيها ، وربما تكون الزوجة أفضل خُلقاً ، وأعظم إيماناً ، وأعلى درجة ، وأطهر قلباً من زوجها ، ورغم ذلك فله حق الطاعة عليها ، حتى تستقيم حركة الحياة .

وإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأساس في بناء الأمة ، وكالنواة في مركز الذرة ، فإن الأمة لا يصلحها خليفتان ، وإنما لها خليفة واحد ، وكذلك الأسرة لها إمام واحد .

ليست القوامة للرجل تعني السيطرة أو الزعامة كما يظن الكثيرون ، وإنما القوامة هي تحمل المسؤولية تجاه الأسرة ، والقيام بالتبعات والواجبات التي فرضها الله على الرجل نحو أهله ورعيته .

فالطاعة للزوج عزٌّ للمرأة ، وكرامة لها ، وليست ذلّاً ومهانة كما يصورها المفتونون ، الذين تربوا على موائد الغرب ، ونهلوا منه السم في العسل ، وتفرنجت عقولهم ، حتى صاروا يسبِّحون بحمدهم ، ولا يرون في الحياة تقدماً ولا حضارة إلا ما تفرزه أفكارهم وتصوراتهم ، وأنَّى لأعمى أن يقود أعمى ، وأنَّى لغريق

أن ينقذ غريقاً ، ولو نفعهم دواؤهم لنفع غيرهم ، فهم مرضى يسري الشقاء في عروقهم ، فهل هؤلاء مؤتمنون على عقائد الأمة وتصوراتها ؟

حقاً إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه .

ما هي ثمرة الطاعة للزوج ؟؟

١ ـ **محبة الله ورضاه** ، وكفى بهذه ثمرة ترنو إليها الأفئدة الطاهرة .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيّمَا امرأةٍ ماتتْ وزوجُها عَنْهَا راضٍ دخلتِ الجَنَّةَ » . رواه الترمذيُّ .

٢ ـ **محبة الزوج واحترامه لها** ، وهذا يفيضُ عليها حناناً ورحمة ومودة ، فلا يرفض لها طلباً ، ولا يهين لها كرامة ، ولا يكسر لها خاطراً .

٣ ـ **ذرية سوية سليمة المزاج** ، فإذا رأى الصغار أمهم تطيع أباهم ، فإنهم سيقتدون بها ، ويحترمون أباهم ، ويرون في طاعته وامتثال أمره غاية المصلحة ، وقمة الرشد والسداد ، فهم يتعلقون في هذه الفترة بأمهم ، وينظرون إليها نظرة القدوة التي يُتأسى بها ، ومن ثَمَّ فلا مجال لانحراف أو انحلال في أسرة لها أب يحترمه أبناؤه ، وتطيعه زوجته .

٤ ـ **كرامة المرأة وشرفها** ، فالمرأة التي تمتثل أمر زوجها ،

تدل على طيب أصلها ، وعراقة جذورها ، وحسن تربيتها ، وشرف نسبها ، وعلو مرتبتها ، وينظر إليها الناس على أنها أصيلة ، خرجت من بيت صالح طاهر ، يعرف الشرف ، ويقدس الأدب ، ويعطي كل ذي حق حقه .

٥ ـ تضفي على المجتمع والأمة بأسرها تماسكاً وارتبطاً يجعله كله على قلب رجل واحد ، ولا غرابة في ذلك ، أليست الأمة كلها كالجسد الواحد ؟ وصحة الجسد دليل على صحة خلاياه وأعضائه ، وفساد الجسد يبدأ من فساد خلاياه وأعضائه ، فمن الأسرة يبدأ الفساد أو الصلاح ، فالأجيال التي تتدفق إلى ميدان الحياة كل يوم إنما هي إفراز لهذه الأسر ، وإذا دب الفساد في الأمة فابحث أولًا عن الأسرة ، فمنها يبدأ العلاج حيث يكمن أصل الداء .

والطاعة للزوج ليست طاعة عمياء ، ولكنها طاعة مبصرة واعية ، فلا طاعة إلَّا في المعروف ، وأما عند المعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وهذه الحدود ترسم الآفاق التي تصل إليها حدود الطاعة .

ويُشرع للمرأة أن تشير على زوجها ما تراه صواباً دون استعلاء وكبرياء ، ولا تدخل معه في جدال وخصام ، وإنما بالتي هي أحسن .

ويذكر التاريخ لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها موقفها

عند بدء الوحي ، حيث طمأنت قلب النبي ﷺ ، وعلمت بفطرتها ونقاء قلبها أن الله لن يخزيه أبداً ، وأشارت عليه بالذهاب إلى ورقة بن نوفل ، حيث أخبره أن الذي رآه هو الناموس الذي تنزَّل على موسى عليه السلام .

وكذلك موقف أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبيّة حيث امتنع المسلمون عن التحلل من الإحرام ، حينما أمرهم النبي ﷺ ، وكادوا يهلكون بسبب عصيانهم لأمره ، وهنا يأتي رأي أم سلمة حيث أشارت على النبي ﷺ أن يبدأ بنفسه ، فيتحللَ من إحرامه ، فلمَّا فعل ذلك تابعه المسلمون ، ووقى الله المسلمين شراً لا يعلم مداه إلا الله .

فطاعة الزوج إذن ليست سلباً لعقل المرأة عن التفكير ، ولا حجراً عليها لإلغاء عقلها ومتابعة زوجها ، بل الطاعة هي معرفة الحدود حتى لا تختلط الأمور ، واستقامة الحياة بهدوء حتى لا يعكر صفوها كثرة الجدال والخصام والشقاق .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها » رواه الترمذي وغيره . وفي رواية : « لما له من حقٍّ عليها » .

وذكر ابن قدامة في كتابه « المغني » خبراً عن رجل خرج من الغزو ، وقال لامرأته : لا تبرحي البيت ، فمرض أبوها ، فأرسلت إلى النبي ﷺ تخبره أن زوجها خرج في الغزو ، وقد مرض أبوها ، وهي تستأذن لزيارته .

فقال لها : « الزمي بيتك ، وأطيعي زوجك » .

ثم بعد حين احتضر أبوها ، فأرسلت تستأذن : يا رسول الله إنَّ أبي قد احتضر أفأشهد أبي ؟

فقال لها : « الزمي بيتك وأطيعي زوجك » .

ثم مات أبوها ، فأرسلت إلى النبي ﷺ : يا رسول الله إن أبي قد مات أفأشهد جنازته ؟

فقال لها : « الزمي بيتك وأطيعي زوجك » .

ثم عاد زوجها من الغزو ، وعلم بما كان ، فذهب إلى النبي ﷺ فبشَّره بقوله : « أخبر زوجتك أنَّ الله قد غفر لأبيها بحسن طاعتها لك » .

وهنا تصبح طاعة الله فوق كلِّ طاعة ، والإيمان هو الذي يقود الإنسان وليس هواه ، وهذه المرأة لو خالفت زوجها ، وعصت أمر النبي ﷺ لما منعت روح أبيها من الخروج عند حلول الأجل ، ولما جلبت له المغفرة من ربه .

وإنما وقوفها عند حدود الله ، وتضحيتها بهواها لامتثال أمر ربها ، دلَّ على حسن تربيتها ، وكمال أدبها وخلقها ، وهنا لم تأخذها حمية الجاهلية ، ولم تغفل مع وطأة مشاعر الأبوة عن حدود الشارع ، فحب الله في قلب المؤمنة أعظم وأجلُّ من محبة أي مخلوق ، وطاعته مقدَّمة على كل طاعة ، ومن طاعته سبحانه طاعة الزوج في غير معصية ، فهذا هو دينه ، وتلك هي شريعته ،

والدنيا كلها ميدان امتحان للتضحية بالأهواء والعواطف ، وليس للتضحية بالدين والشرع والأوامر .

* * *

٤ ـ « إذا غابَ عنها حَفِظَتْهُ في نَفْسِها ومالِه »

الرقابة على سلوك المؤمن تنبع من داخله ، حيث يهيمن الإيمان على قلبه وضميره ، فهو يوقن أن اللهَّ يراه ويسمعه ، ولا تخفى عليه من أعماله خافية مهما دقَّت ، لذلك فهو لا يحتاج إلى من يراقبه ، لأنَّ قلبه الحي بالإيمان هو الرقيب عليه .

وحياة الصالحين والمجاهدين كلُّها أسفار وجهاد ، وغربة ومفارقة للديار والأوطان ، فهي حياة يملؤها الجد والعمل ، ولا مكان فيها للفراغ والتقوقع في البيوت ، وهنا تبرز صفة من صفات المرأة الصالحة حينما يتركها زوجها ، ويغيب عنها لسعي على معاش ، أو جهاد في تحصيل زاد ليوم المعاد ، فهي عفيفة تحفظه في غيبته ، فلا تدخل بيته من لا يأذن له ، أو من لا يحب وجوده في غيابه ، وتحفظ نفسها عن الخروج من بيته لغير ضرورة ، حتى لا تختلط بالآخرين ، والذي قد يفتح باب غواية تميل إليها النفس خاصة عند غياب الزوج .

وقد يتعلَّل أحد بمسألة الثقة بالنفس ، وهذا من تلبيس إبليس ، وخلط الحقائق ، وكلمة حق يُراد بها باطل ، فالمؤمنة لديها من الثقة بالنفس والتعلُّق بالله ومراقبة الضمير ، ما لا يدع مجالًا للشك والريبة ، ولكنها الوقاية التي تجتث جذور الفتنة قبل

استفحالها ، فالشريعة قد جاءت بسد الذرائع ، والقضاء على المقدمات التي تُفضي إلى نتائجها ، وهذا هو المنهج الرباني الراقي والواعي ، الذي يأخذ بيد النفس البشرية خطوة خطوة حتى يعرج بها في مدارج الكمال .

وأمامنا هنا في القرآن موقفٌ للتدليل على تلك المسألة :

١ ـ حينما أمر الله آدم عليه السلام وزوجه حواء بعدم الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ولم يقل : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، وكأنَّ مجرد القرب من الشجرة قد يغري النفسَ بالأكل منها ، أو يفتح للشيطان باباً يلج منه إلى داخل النفس ، فيوسوس لها بالخطيئة .

٢ ـ حينما نهى الله المؤمنين عن الزنى قال لهم : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء : ٣٢] . ولم يقل : ولا تزنوا ، لماذا ؟ لأنَّ الزنى هو النتيجة لمقدمات كثيرة تبدأ من النظرة ، ومن هنا جعل مجرَّد القرب من الزنى ـ أي مقدماته ـ منهي عنه ، حيث سيفضي في النهاية إلى عاقبة السوء ، وهي هتك العرض الحرام .

وكيف تحفظه إذن من نفسها ؟

بألا تعرِّض نفسها لنظر الآخرين ، وهذا الأمر وإن كان مطلوباً في حضوره ، فهو في غيابه أشد تأكيداً ، وهو ينبىء عن مدى حبها له ، واحترامها لمشاعره ، وارتباطها بفؤاده ، وحرصها على سمعته وكرامته ، فإذا تنامى إلى علم الزوج مدى حفظ زوجته

لنفسها في غيابه ، فحدِّث ولا حرج عن طوفان الحب والاحترام ، وعلو القدر والمكانة التي تحظى بها هذه المرأة التقية في قلب زوجها .

وكيف تحفظه في ماله ؟

تحفظه بأن تتقي الله فيه ، فلا تنفقه هباءً بلا منفعة أو مصلحة ، بل ترى هذا المال وديعةً قد استودعها إياه ، وهي أمينة عليه ، ترى كم عانى من الكدِّ والتعب لجمعه وتحصيله من حلال ، فتحرص على حفظه من التبديد والتبذير .

وإذا كان الشارع الحكيم قد طلب من الزوجة حفظ مال زوجها في حضوره ، فإنَّ الأمر في غيابه أشد وأحرص ، وهو بدوره علامة على إخلاصها ، وطيب عنصرها ، ونقاء معدنها .

إن الحياة الزوجة في ظلِّ الإسلام مشاركة ومعاونة ، وليست شركة تجارية يبحث كلُّ طرف من أطرافها عن الربح والكسب من ورائها ، ولا ينظر كلُّ فرد فيها كُم سيأخذ قبل أن يعطي ، فهذه المقاييس تصلح للتجارة ، ولكنها لا تصلح بحال من الأحوال للزواج ، فالزواج ليس تبادل منفعة وصفقة ينتظر صاحبها الربح من وراء الطرف الآخر ، بل هي حياة تُبنى على العطاء بلا حدود ، ولا ينتظر أحد كم سيأخذ ، لأنه حينما يعطي يأخذ احترام نفسه ، ورضا ربه ، وسعادة تغمر قلبه وفؤاده ، وكفى بهذا عطاءً وربحاً ، وسعادة وطمأنينة .

والمرأة إذا استأمنها زوجها على المال فلا تظن أن هذه غنيمة تفعل بها ما تشاء ، بل هي أمانة وليست غنيمة ، والأمين هو الذي يحفظ الأمانة ، ويؤدِّيها عند الطلب .

إنَّ حفظ المرأة لمال زوجها له ثمار هائلة ، منها :

١ ـ **المحبة والثقة** التي تغمر قلب زوجها من جهتها حينما يراها حريصةً على ماله الذي اكتسبه من حلال ، ويرى فيها تقدير كده وتعبه واجتهاده .

٢ ـ **يرفع عن الأسرة العناء** ، الذي يسببه التبذير والسرف في كماليات لا ضرورة لها ، وهذا يسد باب الحرام ، حيث ستقنع النفوس بالحلال الذي تجد فيه كفايةً لضرورات حياتها ، ولا يجعلها تطمح ببصرها إلى حدود لا طاقة لها به .

وإذا أُغلق باب الحرام فهو جُنة وحصانة يكتسبها أهل البيت ، تحميهم من سخط الله في الدنيا ، ومن عذاب جهنم يوم القيامة ، فكلُّ لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

٣ ـ **يربي في نفوس الأسرة القناعة** ، وكما جاء في الأثر : « الاقتصادُ نِصْفُ المعيشةِ » .

فالنفوس التي تتربَّى على السرف تصطدم بمصائب الحياة ، فتنهار من أول وهلة ، ولا تجد لها قدرة على المواجهة .

وأما النفوس التي تمرَّست على العفاف والاقتصاد في حدود

الاعتدال ، فإنها نفوس ناضجة سوية ، لها القدرة على مواجهة مصاعب الحياة .

ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « اخشوشنوا فإنَّ النعمةَ لا تدومُ » .

وإن أرادت المرأة أن تنفق من مال زوجها لصدقة أو معروف فلا يحل لها ذلك إلا بإذنه ، وإن تصدقت من مالها الذي أعطاها إياه زوجها ، فالأجر بينهما ، لأنه الأصل فيه .

أخرج أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في المرأةِ تصّدّقُ من بيتِ زوجِها ؟ قال : « لا ، إلا من قوتها ولا يحلُّ لها أن تصّدّقَ من مالِ زوجها إلا بإذنِهِ » .

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أبي أمامة رفعه : لا تنفقُ امرأةُ شيئاً من بيتِ زوجِها إلا بإذنه » .

قيل : ولا الطعام ؟

قال : « ذلك أفضلُ أموالِنا » .

* * *

٥ ـ الودودة

مودة القلوب تهوِّن مشقة الحياة ، وتعطي النفوس دفعة تتخطَّى بها العقبات الجسام ، والبيوت التي تقوم على الحب والود جذورها قوية ، وأساسها راسخ ، وبنيتها متينة ، فلا تتأثر بعواصف المحن ، ولا تقتلعها رياح الشدائد .

والود والحب عاطفة بين طرفين ، كل منهما يمسك بطرف منها ، وقلَّما يكون لها وجود إذا انبعثت من طرف واحد دون مشاركة من الطرف الآخر .

ولكنَّ البيوت المسلمة لها مقاصد عالية ، وهمم راقية ، تعطيها قوة الصمود ، وعنصر البقاء ، وأسباب الثبات ، حتى لو خفت هذه العاطفة بين الزوجين .

فما كلُّ البيوت تُبنى على الحب ، ولكن هناك بعد المودة توجد الرحمة ، ومن قبلهما هناك السكن ، حيث يسكن كل منهما إلى الآخر ، فلا تتعلق نفسه بالحرام ، وقد رزقه الله ما يغنيه من الحلال .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] . وبالتفكّر في هذه الآية كما أمرنا ربنا جلَّ جلاله نرى روابط الصلة بين الزوجين لها صور ثلاثة :

١ ـ **السكن** : وهو طمأنينة القلب عن الفكر في الحرام ، وكف الوسوسة عن الطموح إلى المحظور ، وقضاء الوطر بما يسكب في النفس الهدوء والثقة عن السعي إلى ما لا يحل من الأعراض ، وخمود الشهوة بعد انبعاثها ، مما يفرغ النفس للطاعة والعبادة بالهمة والنشاط .

٢ ـ **والمودة**[1] : وهي الحب والعاطفة التي تزيد على السكن ، فربما تسكن النفس عن الحرام دون أن يكون هناك ود وحب ، وذلك في ذاته غرض شرعي محمود ، وإذا سكنت النفس وأحبت من تسكن إليه فتلك درجة أعظم ، وهي تعين بنفسها على استمرار الصلة ، وبقاء العلاقة إلى أمد طويل ، فالذي يقوم بالعمل على المحبة لا يشعر بالملل والفتور ، عكس من يقوم بالعمل على الروتين والعادة ، فسرعان ما يدب إليه الملل والرغبة في التغيير .

٣ ـ **والرحمة** : وهذه تظهر خاصة إذا جاء من الزوجة الولد ، واحتاجت إلى العناية والرفق والنفقة ، ربما لا يجد الإنسان سكناً ولا مودة ، ولكن يظل رباط الرحمة يربط بينهما شفقة على هذه الذرية النابتة ، لأنها ثمرة ارتباطهما ، وهنا تأتي مرحلة التضحية

---

(١) المودة لغة : هي المظهر العملي للمحبة .

بالعواطف من أجل المسؤولية التي ألقاها الشارع على عاتق الرجل ، فهو أيضاً راع ومسؤول عن رعيته .

وصفة الود في المرأة الصالحة صفة ضرورية ، وليست صفة إضافية أو هامشية ، فالتودد إلى الزوج يلين الطبيعة ، ويكسر حدة المزاج ، ويضفي على البيت الطمأنينة والأمان .

أخرج ابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تزوَّجوا الودودَ الولودَ فإنِّي مكاثِرٌ بكم يومَ القيامةِ » ، وذكره الشافعي عن ابن عمر بلفظ : « تناكَحُوا تكاثروا ، فإنِّي أُباهي بكم الأممَ » .

وحينما تزوج جابر رضي الله عنه ثيباً قال له ﷺ: « فهلاَّ تزوَّجتَ بكراً تضاحِكُكَ وتضاحِكُها ، وتلاعِبُك وتلاعِبُها » رواه مسلم .

فهذا الود وحسن العشرة مما يشعل العاطفة ويغذيها حتى لا تخمد أو تفتر ، فإن فتور المودة ، وخمود العاطفة ، قد يتسلل منه الشيطان إلى القلب فيزرع الضغينة ، ويوجه النظر إلى العيوب والمساوىء ، ومن هناك تنفرج الزاوية ، ويبدأ الخطر إن لم يتداركهما الله برحمته .

فالمحبة تخفي العيوب ، والمحب يرى مساوىء محبوبه حسنات ، بل يكاد لا يرى له عيباً[1] ، وذلك كحب الأم لولدها ،

---

(١) قال الشاعر :

وعينُ الرضا عن كلِّ عيب كَلِيْلَةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيا

فهي ترى ولدها أجمل الأطفال ، ولو كان أعمى وأصم وأعرج ، ولا ترضى به بديلاً ، ولو خُيِّرت أن تتركه وتستبدل به ولداً صحيحاً سليماً ، لما رضيت بالاستبدال ، فولدها هو محبوبها ، وهي متعلقة به رغم ما فيه ، والسر في هذا التعلق والتغاضي عن المساوىء والعيوب هو صدق العاطفة وإخلاص المحبة .

وبالمثل لو أحب كل من الزوجين الطرف الآخر لعاش كلٌّ منهما وهو لا يكاد يرى في زوجه عيباً .

روى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ألا أُخْبِرُكُمْ بِرِجَالِكُمْ في الجَنَّةِ ؟ » .

قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : « النَّبِيُّ في الجَنَّةِ ، والصِّدِيقُ في الجَنَّةِ ، والرَّجُلُ يزورُ أخاه في ناحيةِ المِصْرِ[1] لا يزورُه إلا للهِ في الجَنَّةِ .

ألا أُخْبِرُكُمْ بِنِسائِكُمْ في الجَنَّةِ ؟ » .

قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : « كُلُّ وَدُوْدٍ وَلودٍ ، إذا أُغْضِبَتْ أو أُسِيءَ إليها ، أو غضبَ زوجُها قالت : هذِه يدي في يدِك ، لا أكتحلُ بِغُمْضٍ[2]

---

(١) أي الجهة أو الضاحية من المدينة أو القرية .

(٢) أي لا تذوق عيني طعم النوم .

حتى ترضَىٰ » .

وكيف تصبح المرأة ودودة ؟

تصبح ودودةً حينما لا تبالغ في الخصومة ، وتعلو وجهها الابتسامةِ الحانية ، ولا تداوم على الخلاف في الرأي والجدال في كل صغيرة وكبيرة ، فقلَّما تخلو الحياة من خلاف بين الزوجين ، وقد حدث هذا بين النبي ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين ، ولكن الخلاف لم يفسد الود ، والرغبة في الإصلاح كانت كامنة في القلوب ، وهذا ما جعل أمد الخلاف لا يطول ، فرب مشكلة عميقة دبت بين الزوجين ، ولكنها ذابت بكلمة طيبة ، أو ابتسامة على الوجه ، أو لمسة حانية ، فإذا هي سحابة صيف ، سرعان ما تنكشف ، ويرجع الجو صحواً إلى سماء الحياة .

وهنا يظهر دور المرأة الودود ، التي لا تتمادى في الغضب ، ولا تصر على العناد ومخالفة الزوج ، بل تتودد إليه حتى تسترضيه ، وليس ذلك انهزاماً وتنازلاً عن الكرامة كما يسول الشيطان لبعضهن ، بل هو القلب الكبير ، والصدر الواسع ، والحنان الغامر الذي لا يعكره شيء ، إنك إن وضعت قطرة حبر أسود في كوب ماء لغيرته ، أما إذا وضعتها في بحر واسع فإنها لا تغيره ، وهكذا يكون صدر المؤمنة واسعاً كالبحر ، لا يعكره ولا يغيره شيء .

وكلما بالغت في الود تجلب به رضا زوجها عنها ، فإنها في

المقام الأول تجلب رضا ربها عنها ، وكما أن رضا الوالدين من رضا الله ، فإنَّ رضا الزوج عن زوجته من رضا الله أيضاً ، وهذا ما تؤكده بعض الآثار : « أيّما امرأةٍ ماتتْ وَزَوْجُها عنها راضٍ إلَّا قيلَ لها : ادْخُلِي مِنْ أيِّ أبوابِ الجَنَّةِ شِئْتِ » .

وفي حديث آخر يوصي فيه إحدى النساء بزوجها : « كيفَ بِزَوْجِكِ وهو جَنَّتُكِ أو نَارُكِ » أي هو بابها إلى الجنة برضاه عنها ، أو بابها إلى النار بسخطه عليها .

* * *

٦ ـ القانتة

قال ابن مسعود رضي الله عنه : القانت : المطيع لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ .

وجاء وصف القنوت للمرأة الصالحة في قوله تعالى : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء : ٣٤] .

و (القانتات) هنَّ المطيعات لله ، القائمات بحقوق الزوج . وجاء وصف القانتات في معرض المغفرة والأجر العظيم لأصحاب الصفات الذين ينالهم موعود الله تعالى في قوله : ﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

والمؤمنة الصادقة لا تتعالى على زوجها ، ولا تتكبر عليه ، وإنما تغلب عليها صفة القنوت ، وهو الطاعة في سكون وخشوع ، لأن طاعتها له من طاعة ربِّها ورضاه عنها .

ولا يشير هذا إلى معنى الذل والمسكنة ، بل يشير إلى التواضع والمرحمة ، فكرامة المرأة من كرامة زوجها ، والتي تحترم زوجها إنما تحترم نفسها ، وترفع من شأنها وقدرها ، لأنها

قد خالفت شيطانها ، واستعلت بإيمانها على نزوات نفسها ، فالشيطان قد يتلاعب بالمرأة ، ويزين لها عصيان الزوج ، والاستعلاء عليه تارة بحجة المساواة ، وتارة من باب حفظ المكانة والكرامة ، وتارة يصوِّر لها أن طاعتها لزوجها قهر واستعباد ومهانة ، وهذه كلها من نسج الشيطان ، ووساوس النفس الأمارة بالسوء ، حتى يقوِّض أركان الأسرة ، ويزرع فيما بينهما معارك وهمية ليس فيها غالب ولا مغلوب ، بل كل من يدخلها مهزوم ومقهور لا محالة .

روى أحمد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صَلَّتِ المرأةُ خمسَها ، وصامَتْ شهرَها ، وحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، قيلَ لها : ٱدْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الأبوابِ شِئْتِ » .

وأخرج الطبراني والبزَّار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ جاءته امرأةٌ فقالت : إنّي رسولُ النساءِ إليك ، وما منهنَّ امرأةٌ علمت أو لم تعلم إلا وهي تهوى مخرجي إليك . اللهُ ربُّ الرجالِ والنساءِ وإلههنَّ . وأنتَ رسولُ اللهِ إلى الرِّجال والنساءِ . كتبَ اللهُ الجهادَ على الرِّجالِ ، فإن أصابوا أَثْرَوْا[1] ، وإن استشهدوا كانوا أحياءً عند ربهم يُرْزَقُوْنَ . فما يَعْدِلُ ذلك من

---

(١) أي صاروا أثرياء أغنياء بما أصابوا من غنيمة .

أعمالِهم من الطَّاعةِ ؟

قال : « طاعةُ أزواجهنَّ ، والمعرفةُ بحقوقهنَّ . وقليلٌ منكنَّ مَنْ يفعلُه » .

فالمرأة الصالحة تطلب المساواة ليس في المناصب ومزاحمة الرجال ، وإنما في الأجر والمثوبة والدرجة عند الله ، والصالحة منهن هي من هذا القليل ، الذي يغالب هواه ، ويجاهد نفسه ، حتى تصوغ حياتها على منهج ربها .

إن هناك طاعة مع استعلاء ، وعدم الرضا ، والشعور بالإكراه عند القيام بأي عمل أو صنيع ، وهذه ليست صفة المرأة القانتة ، فربما تطيع المرأة زوجها خوفاً من عقابه ، أو طمعاً في عطائه ، وإنما المؤمنة تطيعه لوجه الله ، وليس لوجهه هو ، وطاعتها له مع المحبة ، وليست مع الكره والسخط .

والطاعة مع المحبة لا يشعر صاحبها بالفتور مهما طال الزمن ، أما إذا كانت مع الكراهية فإن أمدها قصير ، ولو استمرت فهي لصاحبها كالقيد والغل ، ينتظر متى ينكسر حتى يتحرر منه ، وهذه ليست من صفات القانتات اللاتي يتلذذن بطاعة أزواجهنَّ بالهدوء والسكينة ، لأن ذلك هو الباب الذي يدخلهن إلى رحمة الله الواسعة .

* * *

٧ ـ الحافظة للغيب

المرأة التي يغيب عنها زوجها تدخل دائرة امتحان صادق ، حيث يظهر معدنها ، وحقيقة ما في قلبها تجاه ربها ، ثم تجاه زوجها ، فالزوج هو ولي أمرها ، وله حق الطاعة عليها ، وهي في حضرته ترى عينه ترقب حركتها ، وتشاهد أفعالها ، وأما في غيابه فالله تعالى لا تغيب عنه ، لا في حضور زوجها ، ولا في غيابه ، وهنا يبرز فعل الإيمان في النفوس ، الذي يصوغها صياغة عجيبة ، تجعلها صادقة في جميع أفعالها ، سواء رآها الناس أو غفلوا عنها ، وهي تراقب ربها في السر والعلانية ، وترى نظره أقرب إليها من نظر الآخرين .

جاء ذكر هذه الصفة في الآية الكريمة : ﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] أي الحافظات في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في أنفسهن وماله ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ أي بحفظ الله إياهنَّ بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه ، فمن حفظ أمر الله حفظه الله ، ولاحظته عنايته وكرمه وعطاؤه . « احفظِ اللهَ يحفظْكَ ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

إن محافظة المرأة لما اعتادت عليه من الخير والطاعة ، أو حفظ نفسها بالعفة والمروءة ، أو حفظ رعيتها وأولادها بالاهتمام والرعاية ، كلٌ ذلك عبادة وقربةٌ تتقرب بها إلى الله ، وليس إلى زوجها .

فهي لا تحفظ ما يجب حفظه خوفاً من عقاب زوجها ، أو قطعاً لألسنة من يحيطون بها من أفراد أسرتها وجيرانها ومجتمعها ، وإنما حفظها لأمانتها ينبع من إيمانها بربها ، ومراقبتها له في السر والعلانية ، فهو سبحانه الرقيب على قلوب العباد ، والمستحق للعبادة والطاعة والمراقبة وحده دون غيره من خلقه .

فالمرأة الصالحة عفيفة طاهرة ، وخاشعة عابدة ، وراعية لذريتها وبيتها ، سواء كان ذلك في محضر زوجها ، أو في غيابه ، فهي إذا عبدت وأطاعت تعبد وتطيع لترضي ربها ، لا لترضي زوجها ، وإذا كانت عفيفة طاهرة فهذا لمرضاة ربها ، وليس فقط لحفظ سمعتها ، إذا قامت بحقوق أبنائها وشؤون بيتها تفعل ذلك لا لأنها خادمة أو جارية ، بل تبتغي بذلك الأجر والمثوبة من ربها ، فهذا التصحيح للنوايا والمقاصد قد يدرأ أبواباً كثيرة من الفتن التي يمكن أن تعصف بكثير من البيوت الآمنة .

كم من رجال تغيبوا عن أزواجهم أزمنة طويلة ، إما لجهاد في سبيل الله ، أو لمصلحة شرعية محمودة ، ونساؤهم كن على

العهد ، لم يخن ، ولم يغيرن من طبيعتهن ، بل كن يحتسبن الأجر عند غياب أزواجهن لدعوة أو طاعة أو منفعة تعود على الأمة بأسرها ، فالمرأة تحبُّ قرب زوجها ، ولكنَّها لخدمة الدين تضحي بقربه منها ، وترجو الأجر من الله الذي لا يضيع من التجأ إليه ، ولاذ بحماه .

وهذه هاجر حينما تركها الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في واد لا زرع فيه ولا ماء ، ولا أهل ولا عشيرة ، فهل خانت العهد ، وهربت بولدها ؟؟ وهل تضجرت وخالفت وجادلت من وحدتها مع صغيرها في مظنة الهلاك ، حيث لا زاد ولا مغيث ؟ بل قالت لزوجها : اذهب فلن يضيعنا الله .

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يزورها ، ولا يلبث إلا قليلاً ، ولم يشهد موتها ، ولا زواج إسماعيل عليه السلام ، ولكنَّها كانت وفية بالعهد ، قائمة بحقوق ربها وزوجها[1] .

* * *

---

(١) انظر قصة فروخ والد ربيعة بن أبي عبد الرحمن ص (٥٨) من هذا الكتاب .

٨ ـ العابدة

لا معنى للصلاح بلا عبادة ، ولا للعبادة بلا صلاح ، فكل عابد صالح ، وكل صالح عابد ، فهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالعبادة أصل الصلاح ، ولن تكون المرأة صالحة إلا إذا كانت عابدة .

والعبادة بوصفها الجامع الشامل المحيط هي كل طاعة يحبها الله تعالى ، وتقربنا إليه ، سواء في ذلك ما فرضه علينا ، أو سنه لنا رسوله ﷺ ، أو تطوع به العبد من نفسه ابتغاء وجه ربه مشروطاً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وصفة العبودية من أعلى المراتب التي يصل إليها المؤمن ، والعبد لا اختيار له أمام سيده ، فهو بين يديه يطيع أمره ، ويسارع في هواه ، ولا يرفضُ له طلباً ، ويقدم رغبة سيده على رغبته .

والعابد قد تحرر من أسر شهوته ، وسجن نزوته ، وأصبح بعبوديته لله وحده مطمئن القلب ، ساكن الفؤاد ، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] ، وهكذا لا يستوي من له أسياد كثر ، كل منهم له هواه ورغبته ، وهو عبد لهم جميعاً ،

وعليه أن يرضي كلاً منهم . وبين عبد له سيد واحد ، لا يملكه غيره ، فذاك ممزَّق مشتت بين أهواء كثيرة ، وهذا آمن مستقر عند رغبة واحدة وآمر واحد .

ومن صور العبادة التي جاء ذكرها في وصف الصالحات قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] . فالصدقة ، والصيام ، والذكر من العبادات التي تُفضي إلى الخشوع والفقه والصدق والصبر .

ومما ذُكر في مناسبة هذه الآية ما رواه النسائي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ : يا نبيَّ الله ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن والنساء لا يُذكرن ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . . ﴾ الآية .

وقدوة العابدات هي مريم ابنة عمران ، العذراء البتول ، حيث ذاقت حلاوة طاعة الله في مهدها ، واختارها الله لتكون وابنها آية للعالمين .

وتاريخ هذه الأمة كله حافل بالعابدات الصالحات اللاتي قمن بحقوق العبودية لله دون التقصير في حقوق أزواجهن وأولادهن .

فمن العبادة التي تطهر القلب ، وتزكي النفس ، وتكون صفة ملازمة للمرأة الصالحة :

١ ـ **ذكر الله** : كالتسبيح والتهليل والاستغفار ، وليكن لها من ذلك ورد بعد الفجر ، وبعد العصر ، فتسبح مئةً ، وتستغفر مئةً ، وتصلي على النبي ﷺ مئةً .

٢ ـ **قراءة القرآن** : في اليوم جزء حتى تختمه كل شهر مرة ، وإن كانت أمية لا تقرأ فعليها أن تسمعَ كل يوم جزءاً ، فقد جاء في الأثر : « من استمعَ إلى آيةٍ من كتابِ اللهِ كتبتْ لهُ حسنةٌ مضاعفةٌ ، ومن تلاها كانتْ له نوراً يومَ القيامةِ » أخرجه أحمد عن أبي هريرة .

٣ ـ **أداء الفرائض في أوقاتها** : لا تتخلف عنها انشغالاً بضيف ، أو تعللاً بالمشاغل البيتية ، فأمر الله أولى أن يقدَّم على غيره ، وما تقرب عبدٌ بشيءٍ أحب إلى اللهِ مما افترضَه عليه .

٤ ـ **أداء السنن والنوافل قبل المكتوبات وبعدها** : وكذا سنة الضحى والوتر والتهجد بالليل .

٥ ـ **الصيام** : كالإثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، وستة أيام من شوال .

وتراعي أنه لا يحل لها صيام التطوّع وزوجها حاضر إلا بإذنه .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « لا يَحِلُّ لامرأةٍ أن تصومَ وزوجُها شاهِدٌ إلَّا بإذنهِ ، ولا تأذنَ في بيتهِ إلا بإذنهِ » .

٦ ـ **الصدقة** : وهي تطفىء غضب الرب ، وتمحو كثيراً من الخطايا التي تقع فيها النساء ، إما لغفلة ، أو جهل ، أو غلبة هوى ، لذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عنه ابنُ عمر : « يا معشرَ النساءِ تصدَّقنَ، وأكثرنَ الاستغفارَ، فإنِّي رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ ».

قالت امرأةٌ منهنّ : ما لنا يا رسول الله أكثرَ أهل النار ؟

قال : « تُكثِرْنَ اللَّعْنَ ، وتَكْفُرْنَ العَشِيْرَ ، ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أغلبَ لذي لبٍّ منكنَّ » .

قالَت : يا رسول الله ِوما نقصانُ العقل والدين ؟

قال : « أما نُقْصَانُ العَقْلِ فَشَهادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ ، وتمكُثُ اللَّيالِيَ ما تُصَلِّي ، وتُفْطِرُ في رَمَضَانَ ، فهذا نُقْصَانُ الدِّيْنِ » رواه مسلم .

العبادة هي الزاد الذي يعطي للمؤمن قوة الدفع ليستمر على الطاعة ، فالاستقامة خير من ألف كرامة ، وفتن الدنيا كالأمواج العاتية ، لا يصمد أمامها إلا أصحاب الهمم العالية ، والهمة رزق من رزق الله ، والعبادة سبب فيها ، فمن سارع إلى الطاعة سارع الله إليه برحمته وعونه توفيقه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

والعبادة إذا كانت صحيحة على منهاج النبوة فإنها تثمر احتراماً للزوج ، ورحمة وشفقة على الذرية ، والتزاماً وجدية في الطاعة ، دون التنازل عن أي جزئية من جزئيات الحق ، تحت ظروف البيئة الفاسدة ، والعرف الباطل .

آفة العبادة : وأما إذا أثمرت العبادة غروراً في النفس ، وكبراً واستعلاءاً على الزوج ، وإهمالًا للذرية ، وتفريطاً في الحقوق ، فهذه عبادة تحتاج إلى تصحيح قبل أن تُرد على وجه المرأة المغرورة ، التي تظن أنها تحسن صنعاً .

إن آفة العبودية هي الغرور والاستعلاء ، الذي يملأ النفس حتى تنتفخ ، وتجد في العبادة ذريعة تحتقر بها الآخرين ، أو تتفلّتُ بها من الحقوق الشرعية المفروضة عليها ، فالذي يعبد يجب أن يطيع لله لا للنفس ، وأن يتخلّق بأخلاق العابد الخاشع ، لا أن تكون صورته صورة ملاك ، وباطنه صورة شيطان مريد .

والعبادة لذلك مبناها على العلم والمعرفة ، وفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ومدارسة العلم عبادة ، وطلب العلم فريضة على المسلم والمسلمة ، وكل عبادة لا تبنى على علم فربما انقلبت إلى معصية بما يدخلها من غرور ورياء وسمعة .

وإذا كانت المرأة الصالحة عابدة ، فهي عابدة خاشعة فقيهة بدينها ، لا تزيدها العبادة إلا طاعة للزوج ، ومعرفة بحقه ، ثم قيامها على رعيتها من بيت وذرية ، فكلّما زادت عبادتها زاد

تواضعها ، وقلَّ غرورها ، وهنا تكون قد عبدت ربها حقَّ عبادته ، وخالفت هواها إذعاناً وتسليماً لمرضاة خالقها وبارئها[1] .

* * *

(١) انظر سيرة العابدات في كتابنا « الصفوة في حياة خيار النسوة » .

٩ ـ الداعية إلى الله

الإيمان ليس عقيدة راكدة داخل الصدور ، ولكنه عقيدة حية تعلن عن نفسها سلوكاً في واقع الحياة ، يظهر على الجوارح ، ودعوة للآخرين تضيء قلوبهم بنور اليقين ، حتى لا تزلَّ الأقدام .

وإذا كانت الدعوة إلى الله أمانة وتكليفاً ومسؤوليةً على هذه الأمة ، فإنها تقع على عاتق الرجال والنساء معاً ، فهم شركاء في الانتفاع بثمرات هذه العقيدة ، ومن الأنانية أن يستأسر بها أحد لنفسه ، دون أن يدلَّ الآخرين عليها ، والدال على الخير كفاعله .

ومن التخليط المرفوض أن تنعزلَ المرأة عن ركب الدعوة ، وأن تكون على هامش الحياة ، لا تعرف من هموم الأمة شيئاً ، فالمرأة تملك قوة العاطفة ، وهذه القوة تحرك أمماً وأجيالاً ، إما إلى الحق ، وإما إلى الباطل ، ومن هنا جاءت الدعوة إلى الله عامة ، تستنفر جميع القوى في هذه الأمة ، حتى يعلو الحق ، ولا يعلو عليه غيره ، فكم من الطاقات المهدرة تضيع على الفروج والبطون ، بينما لو فُتح لها الباب لخدمة الدين ، لتغيرت معالم الدنيا ، وظهرت الأرض بمن عليها في لون جديد وصورة طاهرة نقية تقية .

إن الولاية في الدين أو الموالاة من أهم معانيها التعاون على البر والتقوى ، وشد الأزر على الطاعة ، ورفع الهمم لتحمُّل مشاق الطريق ، فالفرد قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، والطائع إذا رأى غيره معه في طريق الحق ، فإنه يستأنس به ، ولا يستوحش من بُعد الطريق .

قال الله تعالى يصف من سيتعرضون لرحمته ، ويفوزون بمغفرته ورضوانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] ومعنى ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ : أي يتناصرون ويتعاضدون ، فالآية قد ذكرت أربع صفات هي من مؤهلات الرحمة :

١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢ ـ إقامة الصلاة .

٣ ـ إيتاء الزكاة .

٤ ـ طاعة الله ورسوله ﷺ .

فالمرأة ليست عضواً مشلولاً في جسد الأمة ، وهي ليست عاطلة محصورة لإعداد الطعام وتهيئة الفراش للمنام ، بل لها شأن في إشاعة المعروف ، والقضاء على المنكر ، حيث إنها تحتك بقطاع عريض من أبناء الأمة ، فهي الأم والأخت والزوجة والبنت ، وإذا نظرتَ في كل هذه الأطوار وجدتَ لها أكبر الأثر

في قلوب من حولها ، فالأم لها محبة ووقار ، والأخت لها معزة واحترام ، والزوجة لها شعبة من القلب ، حيث عندها يكون السكن والمودة والرحمة ، والبنت لها دلالها وجاذبيتها في قلب أبيها ، فهذا الدرع الواقي هو الذي يحمي ظهر الأمة ، حتى لا تأتيها الطعنة من خلفها ، ولذلك حينما أراد أعداء الدين النفوذ إلى قلب الأمة ، وجدوا بعد جهد مستميت أن نقطة الانطلاق تبدأ من المرأة ، لما لها من جاذبية وسلطان على القلوب ، إما سلطان المحبة ، وإما سلطان الهيبة ، وإما سلطان الدلال والمودة .

والتاريخ نستسقي منه عبرة تضيء لنا الواقع ، فالذي لا أصل له لا ثمرة له . وحينما أراد الله إنقاذ بني إسرائيل من بطش فرعون جاءت التضحية الأولى من أم موسى ، حينما قبلت أن تلقي ولدها في البحر امتثالًا لأمر الله . وحينما أراد الله أن يبني بيته في الأرض كانت التضحية من هاجر التي قبلت راضيةً فراق زوجها ، وهي وحيدة مع ولدها في صحراء جرداء ، هي مظنة الموت والهلاك .

وأول من آمن بالنبي ﷺ خديجة . وأول شهيدة في الإسلام سمية .

وحينما دعا الرسول ﷺ : « اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحدِ العمرين عمرَ بنِ الخطاب أو عمرِو بن هشامٍ » أنزل الله الهداية على قلب عمر بن الخطاب ، وكان سببُ هدايته أختُه فاطمة حينما ذهب إليها ، وضربها حتى أدمى وجهها .

فالمرأة الصالحة تقود أمة كاملة إلى البر والتقوى ، والمرأة الفاجرة تقود أمة كاملة إلى الفجور والضلال ، روى أبو نُعيم في « الحلية » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ بِرَّ المرأةِ المؤمنةِ كعملِ سبعينَ صدِّيقاً ، وإنَّ فجورَ المرأةِ الفاجِرَةِ كفجُوْرِ ألفِ فاجرٍ » .

وكيف تدعو المرأة المؤمنة الصالحة إلى الله ؟

وسائل الدعوة هي : **القدوة ، والحكمة ، والكلمة الطيبة** ، وتأخذ هذه المراحل حتى تصل إلى المقصود :

١ ـ الأُلفة والمحبة بينها وبين من تدعوه من النساء الأخريات ، فالأُلفة هي الجسر بين الداعي والمدعو ، وعلى هذا الجسر ينتقل الفكر من القلب إلى القلب ، وإذا انكسرت هذه الجسور ، انقطعت الصلة بين الداعي والمدعو ، فيصبح الكلام كله مرفوضاً ، لا يصل إلى القلب حتى ولو كان حقاً ، لأن المعبر الذي سيعبر عليه قد سقط وانهار .

وهذه المحبة ينبتها الإكرام والعطاء والبذل والإنفاق .

٢ ـ ثم تأتي **مرحلة الكلام والبيان** ، وهنا يُراعى التدرج والحكمة ، والبدء بجلاء القلوب بذكر الغيب ومنافع الإيمان وأهمية الدين ، وضرورة الفهم لمقصد الحياة ، وأن وراء هذا الوجود غاية ، ولله مراد من خلقه ، ثم البيان في التوحيد والعقيدة عن قدرة الله وعظمته ، ودلائل كبريائه ، ودقة صنعته ، فهذا

الترسيخ لجذور الإيمان يملأ القلب بعظمة الآمر ، ومن بعدُ سيسهل على المستمع امتثال الأوامر .

٣ ـ ثم مرحلة التكاليف بذكر المطلوب منا ، وأنه عِزٌّ لنا وليس قيداً يكبِّل أقدامنا ، فهذا الدين جاء لييسر علينا الخطى في الحياة ، ويجنبنا مواطن الزلل ، ويفتح لنا الطريق لنتمتع بطيبات الحياة دون أن نكون أعداء لنعمة الله ، فالذي يستعمل النعمة في مرضاة ربه فقد شكرها ، ومن استعمل النعمة في سخط الله فقد كفرها ، وبعض الناس أعداء لنعمة الله بعصيانهم وشرورهم ، حتى ينتهي بهم المصير إلى زوالها من أيديهم ، وانتقالها إلى غيرهم .

المرأة الداعية إلى الحق لا يشترط فيها البلاغة ولا غزارة المعلومات ، وإنما يشترط فيها همٌّ صادق يملأ قلبها بأهمية الدين ، وعاطفة تملأ كيانها بقيمة دورها في حفظ دينها ، وإخلاص لا يخالطه سمعة ، يعطيها قوة دافعة للسير مهما واجهت من محن وعقبات وشدائد ، وحكمة وشفقة ورفق يجعل كلامها مقبولًا ، ولو كان الحق الذي تدعو إليه مُراً ، وقبل هذا كله اليقين الذي يغمر فؤادها أن الهداية لها أسبابها ، ومن أسباب هدايتها أن تدعو لدينها ، حتى تحفظ نفسها من شرور الفتن ، وتصبح سفينة نجاة تنتشل الغرقى ، وهم يصارعون الموت تحت أمواج الشهوات وعواصف الإغراء .

* * *

١٠ ـ الراعية لبيتها والمدبرة لمعاشها

الرعية أمانة في العنق ، وعليها مساءلة يوم القيامة ، والبيت هو رعية المرأة التي تُسأل عنها ، فرعاية الزوج في طعامه ومنامه وراحته وإعانته على طاعة ربّه أمانة ، وتعليمُ الأولاد حب الله وحب رسوله ﷺ ؛ وتوقير الدين ؛ واحترام الأب أمانةٌ ، وتهيئةُ البيت ؛ ونظافته وهدوءه ليكون محلاً للراحة والسكن أمانةٌ ، وصيانةُ أثاثه ؛ والاقتصاد في النفقة ؛ وتدبير المعاش أمانةٌ ، وهذه الأمانات هي ميدان السؤال يوم القيامة كيف كان القيام عليها ، والمحافظة على أدائها .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّكُمْ راعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ ، الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والرجلُ راعٍ في أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بيتِ زَوْجِهَا ومَسْؤُولةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، والخادِمُ راعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ راعٍ ، ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » متفق عليه .

ومن أراد أن يعرف كيف تكون الرعاية في أعظم صورها ، فإنه لن يجد في هذا المقام سوى خديجة أم المؤمنين ، التي قامت

برعاية زوجها ﷺ وبيتها وأولادها خيرَ قيام ، وفرّغت النبي ﷺ لمسؤولية الدعوة ، ولم تشغله بهموم البيت ، فاستحقت بذلك محبة ومكانة في قلبه جعلته لا ينساها بعد مماتها ، وهذا فوق مالها من كرامة عند ربها يوم تلقاه ، حيث بشرها جبريل عليه السلام ببيت في الجنة من قصب ـ وهو اللؤلؤ المجوَّف ـ لا صخب فيه ولا نصب .

وفي بطون الكتب عجائب لنسوة صالحات خرج من بيوتهن أئمةٌ ، أضاؤوا لهذه الأمة سبل الهداية ، وكان ذلك من حسن رعايتهن لأمانتهن .

ومن ذلك ما حكاه ابن الجوزي في كتابه « صفة الصفوة » (١٤٨/٢) : أنَّ فرّوخ والد ربيعة بن أبي عبد الرحمن خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية غازياً ، وزوجته حامل بربيعة ، وخلَّف معها ثلاثين ألف دينار ، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً ، وفي يده رمح ، فنزل عن فرسه ، ثم دفع الباب برمحه ، فخرج ربيعة فقال له : يا عدو الله أتهجم عليَّ في منزلي ؟ فقال أبوه: يا عدوَّ الله أنت رجل دخلت على حرمي ، فتواثبا ، وتلبَّبَ كل واحد منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، وبلغ ذلك مالكاً والمشايخ فأتوا يعينون ربيعة ، وجعل ربيعة يقول : لا أتركك إلا عند السلطان !! ويقول أبوه : لا أتركك إلا عند السلطان وأنت مع امرأتي .

وكثر الضجيج ، فلما أبصروا بمالك سكت الناس كلُّهم ،

فقال مالك : أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار . فقال الشيخ : هي داري وأنا فروخ مولى بني فلان ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت : هذا زوجي ، وهذا ابنه الذي خلَّفه وأنا حامل به ، فاعتنقا وبكيا ، وقال لزوجته بعدما دخل البيت هذا ابني ؟ قالت : نعم ، قال : أخرجي المال الذي عندك ، وهذه معي أربعة آلاف دينار ، فقالت : المال دفنته ، وأنا أخرجه بعد أيام .

فخرج ربيعة إلى المسجد ، وجلس في حلقته ، وخرج أبوه إلى حلقة عظيمة ، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لا يراه ، فرجع إلى البيت معجباً بولده ، ويقول لزوجته : رأيت ولدك في حالة ما رأيت أحداً من أهل الفقه والعلم عليها .

قالت : فأيُّما أحبُّ إليك ، ثلاثون ألف دينار ، أو هذا الذي هو فيه من الجاه ؟ قال : لا والله إلا هذا ، قالت : فإني أنفقتُ المال كلَّه عليه ، قال : فوالله ما ضيَّعتيه .

وهكذا المرأة الصالحة في بيتها تعرف كيف تبنى عقولًا وقلوباً قبل أن تغذي بطوناً وأجساماً ، وتعرف طريقها في القيام بحقوق رعيتها ، وتهتدي بنور فطرتها إلى إنفاق المال في الوجوه المشروعة ، التي يعود نفعها على أسرتها وأمتها ، والثمرة الطيبة من هذه الرعاية الطاهرة هي رجل ذو همة يحيي الله به أمة .

* * *

١١ ـ المربية لأولادها

الأم هي المدرسة الأولى في الحياة ، التي يتخرَّج منها الأجيال إلى ساحة الدنيا ، فالأبناء يمتصُّون القيم من جذورهم الأولى ، فإن طابت الجذور طابت ثمارها ، وإن فسدت الجذور فسدت ثمارها ، والأم تغذي أبناءها بالمفاهيم والتصورات ، وترضعهم غذاء الأرواح ، كما ترضعهم اللبن غذاء الأبدان .

والأم الصالحة هي الوجه الأول على عتبة الحياة التي يلتقي بها الطفل ، ويبدأ عندئذ في المحاكاة والتقليد ، ويستقي كل معلومة جديدة من أمه ، التي تلازمه تلازم الليل والنهار .

ومن هنا فالذي يبتغي ذرية صالحة تشرِّفه ويشرُفُ بها يبدأ من اختيار الزوجة ، لأنها مصنع الرجال ، ومربية الأجيال .

والمرأة داخل بيتها هي القدوة والمثال الذي يُحتذى به ، فإن كانت مستقيمة في عهدها مع ربها ، ملتزمة في خاصة نفسها بدينها وعبادتها وأخلاقها وسلوكها ، فإنَّ هذه القدوة سوف تنضح على الذرية هذه الاستقامة وتلك الجدية في التمسك بدين الله ، والاعتصام بحبله المتين .

ومنهج التربية مع الأولاد منثور في بطون الكتب وصفحات

التاريخ ، ويمكن أن نهتدي بهذه الوصايا لعلها تنفع الأمهات في حفاظة فلذات الأكباد :

١ ـ **القدوة في التربية** ، والاعتناء بارتباط القول بالعمل ، فلسان الحال أبلغ أثراً ، وأعمق فهماً ، من لسان المقال ، وما يراه الطفل بعينيه حال الصغر ، يظل محفوراً في الذاكرة ، لا يبلى مع الأيام ، ولا يُنسى مع مرور السنين .

٢ ـ **ترغيبُ الأولاد في مجالسة الصالحين وصحبتهم** ، ومحبة أهل الدين وتعظيمهم واحترامهم ، وإرسالهم إلى حلق العلم ، وغرس الوقار في قلوبهم للعلماء والأئمة الصالحين .

٣ ـ **بذل الجهد لتحفيظهم القرآن** ، أو جلب من يعلمهم القرآن في البيت ، فهذا خير ميراث يتركه الوالدان لأولادهما .

روى أبو داود والحاكم عن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ القرآنَ وعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ والداه تاجاً يومَ القيامةِ ضَوْؤُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ في بيوتِ الدنيا ، فما ظنُّكُمْ بالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا » .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ القُرآنَ وتَعَلَّمَهُ ، وعَمِلَ بِهِ ، أُلْبِسَ والداهُ تاجاً مِنْ نُورٍ ، ضؤوه مثل ضوءِ الشَّمْسِ ، ويُكْسَىٰ والداه حُلَّتَيْنِ ، لا تقومُ لهما الدُّنيا ، فيقولان : بِمَ كُسِينا هذا ؟ فيقال : بِأَخْذِ ولَدِكُمَا القرآنَ » رواه

الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وأخرج الترمذيُّ وابنُ ماجه بإسنادهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ القرآنَ فاسْتَظْهَرَهُ[1] ، فَأَحَلَّ حَلالَهُ ، وحَرَّمَ حَرَامَهُ ، أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِ الجَنَّةَ ، وَشَفَّعَهُ في عَشْرَةٍ مِنْ أهلِ بَيْتِهِ ، كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتَ له النَّارُ » .

٤ ـ تعليم الآداب الشرعية للعادات اليومية ، مثل أدب الاستئذان ، وآداب الطعام والمنام ، وآداب الدخول إلى الخلاء ، والخروج منه ، وآداب الخروج من البيت ، والدخول فيه ، وآداب المساجد ، ومعاملة الكبار ، وكذلك تعليم الأدعية المأثورة ، والأذكار المسنونة ، حتى يصبح مميَّزاً من صغره في عاداته وسلوكه وفهمه وتصوراته .

إن كثيراً من الأئمة والصالحين الذين أضاءوا لهذه الأمة طريقها ، وكانوا منارة يستدِل بها الحيارى على بر الأمان ، كان وراءهم نساء صالحات ، وأمهات عابدات خاشعات ، فكم من رجال وقادة ، كان للمرأة دور في تربيتهم ، حتى صاروا في هذه الأمة أعلاماً وسادة .

قالت أم سفيان الثوري لولدها سفيان : يا بنيَّ اطلب العلم ، وأنا أكفيك بمغزلي ، وقالت له : يا بنيَّ إذا كتبت عشرة أحرف

---

(١) أي حفظه عن ظهر قلب .

فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك ، فإن لم يزدك ، فاعلم أنه يضرك ولا ينفعك .

وهذه أسماء ذات النطاقين ، قد بلغت السابعة والتسعين من عمرها ، ويُحاصَر ابنها عبد الله بن الزبير في الحرم ، ويصبح في موقف حرج ، فيذهب إلى أمه يستشيرها في الموقف ماذا يفعل ؟

فقالت تلكم الأمُّ المؤمنة الصابرة : أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وتدعو إلى الحق ، فاصبر عليه حتى تموتَ في سبيله ، وإن كنت تريد الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن معك !!

قال : يا أماه والله ما أردت الدنيا ، وما جُرْت[1] في حكم ، وما ظلمت ، وما غدرت ، والله يعلم سريرتي وما في قلبي .

قالت : الحمد لله ، وإني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن سبقتني إلى الله عزَّ وجلَّ .

ثم تعانقا عناق الوداع ، وقالت له : يا بني اقترب حتى أشم رائحتك ، وأضم جسدك ، فقد يكون هذا آخر العهد بك ، فأكب على يديها ورجليها ووجهها يقبلها ، ودموعه تشتبك بدموعها ، وهي تتلمس ابنها وهي عمياء لا ترى ، ثم ترفع يدها وهي تقول : ما هذا الذي تلبسه ؟ قال : درعي ، قالت : يا بني ما هذا لباس

---

(١) ظلمت .

من يريد الشهادة في سبيل الله ، انزعه عنك ، فهو أقوى لوثبتك ، وأخف لحركتك ، والبس بدلًا منه سراويل مضاعفة حتى إذا صرعت لا تنكشف عورتك .

فنزع درعه ، وشد سراويله ، ومضى إلى الحرم لمواصلة القتال ، وهو يقول : لا تفتري عن الدعاء يا أماه . فرفعت كفها قائلة : اللهم ارحم طول قيامه ، وشدة نعيبه في سواد الليل والناس نيام ، اللهم ارحم جوعه وظمأه في هواجر مكة والمدينة وهو صائم ، اللهم إني قد أسلمته لك ، ورضيت بما قضيت فيه ، فأثبني فيه ثواب الصابرين .

ويذهب ابنها ، وبعد برهة من الزمن انقضت في قتال مرير غير متكافىء ، تلقى ابنها عبد الله ضربة الموت ، ليلقى الله عزَّ وجلَّ شهيداً ، ليس هذا فحسب ، بل يصلب جثمانه كالطود الشامخ في الحجون[1] .

وتسمع الأم الصابرة ذات السبع والتسعين سنة ، العمياء البصيرة ، وتذهب إلى ولدها المصلوب ، تتلمس الطريق حتى تصل إليه ، فتقترب منه ، وتدعو له .

وإذا بقاتله يأتي إليها في هوان وذلة ، ويقول لها : يا أماه إن الخليفة أوصاني بكِ خيراً . فتصيح به : لست لك بأم ، أنا أم هذا

---

(١) مكان بمكة .

المصلوب ، وعند الله تجتمع الخصوم .

ويتقدم ابن عمر رضي الله عنهما معزياً ومواسياً لها فيقول : اتق الله واصبري .

فتقول له بلسان المؤمنة الواثقة بوعد الله : يا ابن عمر ! وماذا يمنعني أن أصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل .

ما أعظم الأم ! وما أعظم الابن !

حقاً إن النساء محاضن الرجال ، بصلاحهن يصلح الرجال ، وبفسادهن يفسد الرجال . .

* * *

١٢ - قرارها في بيتها

خلق الله تعالى المرأة لتكون أماً حانية ، وزوجة ودوداً ، وملكة متوجة على عرشها في بيتها ، فالدين أرسى أصول المساواة بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب ، وليس في الزي وطبيعة الحياة ، فالمرأة قرارها وسكنها داخل بيتها ، وإن خرجت منه فلا تخرج إلا لضرورة ، دون أن تزاحم الرجال في الطرقات ، فالمؤمنة متميزة عن الفاجرة في فهمها وسلوكها ، ومشيتها ومزاجها ، وطريقة حياتها .

وليس القرار في البيت حبساً أو سجناً كما يصور الذين يخلطون الحق بالباطل ، ويضعون السم في العسل ، بل هو حفاظة للمرأة ، وترسيخاً لنظرة الإسلام لها ، حيث يراها جوهرة مصونة ، ودرة غالية ، يجب ألا تكون نهباً للعيون الشرهة ، والنظرات المغرضة .

وقد يتذرَّع من يريد إخراجها تحت ستار العبادة ، ولو خرجت إلى الطاعة وطلب العلم والصلاة فهي مأمورة أن تخرج بحجابها ، من غير زينة ملفتة للعيون ، وهذا هو سد الذرائع أمام الفتن ، حتى لا تُستغل العبادة لمفاسد قد تضيع أمامها كثير من المصالح والمنافع .

روى البزار والترمذي عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنَّ المرأةَ عورةٌ ، فإذا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَها[1] الشيطانُ ، وأقربُ ما تكونُ بِرَوْحَةِ رَبِّهَا[2] وهي في قَعْرِ بَيْتِهَا » .

وفي حديث آخر : « لا تَمْنَعُوْا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ ، وَلْيَخْرُجْنَ وهُنَّ تَفِلاتٍ »[3] - وفي رواية - « وبيوتهنَّ خيرٌ لهنَّ » .

إن العطاء إذا قارنه الإخلاص والصدق فإن صاحبه سيجني من ورائه براً وعطفاً ، وحباً وحناناً وإحساناً ، لا توازيه كنوز الأرض ومغانم الدنيا ، والمرأة الصالحة في بيتها هي نبع العطاء لزوجها وأولادها ، وجزاء الإحسان هو الإحسان . وإن وجدت جحوداً ونكراناً للجميل ، فإن أعمالها وتضحياتها قد أحصاها من لا ينساها ، وإن وجدت جفوة من المخلوق ، فستجد جوداً وكرماً وعطاءاً من الخالق ليس له حدود .

وبعد : فهذه بعض معالم المرأة الصالحة التي تتوق إليها الأمة بأسرها ، وهي الثروة الغالية ، التي تتوق إليها نفوس الرجال .

---

(١) لزمها وصاحبها .

(٢) رحمته وقربه .

(٣) أي في غير زينة وتبرج .

فاللهمَّ اجعل نساءَ الأمّةِ كلهنَّ صالحات مصلحات تقرُّ بهن عيون الأزواج والأبناء ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل ، وله الحمد أولًا وآخراً ، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين .

● ● ●

الفهرس




كتب للمؤلف

١ ـ مشكاة الدعوة ونصيحة الدعاة .

٢ ـ الحق المر .

٣ ـ الذكرى في علامات الساعة الصغرى والكبرى .

٤ ـ الصفوة في حياة خيار النسوة .

٥ ـ تحذير السالك من أسباب المهالك .

٦ ـ من هي المرأة الصالحة ؟

٧ ـ المرأة التي جنى عليها دعاة التحرر .

٨ ـ التحفة في خطب الجمعة .

٩ ـ فضائل الدعوة .

١٠ ـ النصيحة .

١١ ـ الأجوبة المسكتة .

١٢ ـ المخلاة .

١٣ ـ الحلول الشرعية في الخلافات الزوجية .

١٤ ـ وقفات في حياة الأنبياء .